الفصل الأول

مجتمع الفضيلة ومجتمع الرذيلة

مقدمة :

تختلف المجتمعات فى مقدار أخذها بالفضائل الأخلاقية . وهى لهذا تتفاوت قوة وضعفاً بحسب نظام أخلاقها صالحاً أم طالحاً . فالمجتمع القوى قوى بأخلاق أبنائه وصلاحهم.والمجتمع الضعيف ضعيف بفساد أخلاق أبنائه وانحلالهم. ذلك أن الفضيلة كما يقول ابن مسكويه لا تتحقق إلا بالممارسة والتعامل بين الناس . ففضيلة الفرد من فضيلة الجماعة والعكس صحيح . وخير الفرد من خير الجماعة والعكس صحيح أيضاً . ومن هنا تكون العلاقة بين الفرد والجماعة علاقة تفاعلية تبادلية تقوم على الأخذ والعطاء كل منهما يستمد قوته من الطرف الآخر. والدين أصل الفضائل وأساس الأخلاق فهو يتضمن قيماً اجتماعية وغايات سامية ومثلاً عليا تهئ للمجتمع سبيل التكامل والعيش فى طمأنينة . وهو طريق الوصول إلى الكمال الانسان ، وقد كان فساد الأخلاق سبباً هاماً فى انهيار المجتمع وزوالها على مر العصور وكر الأزمان . وقد عبر أمير الشعراء عن هذا المعنى أبلغ تعبير بقوله :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت . . فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقوله أيضاً

واذا أصيب القوم فى أخلاقهم . . فأقم عليهم مأتماً وعويلا

تعريف الفضيلة :

الفضيلة عند علماء المسلمين عمل يغرس الخير فى الوجود . ويعرف أحمد أمين الفضيلة (الأخلاق : ص : ١٠١) بأنها ميل مكتسب من تكرار أفعال طيبة تتفق مع القانون الأخلاقى . فهى عادة فعل كل ما هو خير . وكل عادة طيبة اعتادتها النفس تعتبر فضيلة كالشجاعة والثبات والاعتدال والصراحة وقول الحق . ولذا يقال إن الفضيلة هى الخلق الطيب .

وتعنى الفضيلة أيضاً العمل الخير الكبير مع تحمل المشاق فى سبيله . وهذا يفهم من الاشتقاق اللغوى للكلمة ذاتها . فهى مشتقة من الفضل وهو

الزيادة . والفضيلة عند فلاسفة الإغريق غاية السلوك الإنسانى ووسيلة تحقيق سعادة الإنسان ، ويرى بعض علماء المسلمين منهم الغزالى وابن مسكويه وغيرهما أن الفضيلة هى التوسط والاعتدال أو نقطة الوسط بين رذيلتين . فالشجاعة وسط بين التهور والجبن . والجود أو الكرم وسط بين الإسراف والتقتير أو البخل ، والعفة وسط بين الفجور والجمود . وهذه النظرية الوسطية للفضيلة ترجع إلى فيلسوف الإغريق المعروف أرسطو ، وقد عرفت نظريته بنظرية « الأوساط » . وقد انتقدها أحمد أمين واعترض عليها (الأخلاق ص : ١٠٣) لأسباب منها : أن هناك كثيراً من الفضائل لا يظهر فيها أنها وسط بين رذيلتين كالعدل والصدق، فليس هناك إلا ظلم وعدل وصدق وكذب ، ومنها أن بعض الفضائل ليست وسطا بين رذيلتين . فالشجاعة ليست على بعدين متساويين من التهور أو الجبن بل هى أقرب إلى التهور ، وكذلك الكرم أقرب إلي الاسراف منه إلى البخل. أى أن الفضيلة ليست وسطاً حسابياً صحيحاً . ولكن يمكن الرد على اعتراضات أحمد أمين رغم احترامنا الشديد لوجهة نظره بأننا لو نظرنا فى حقيقة الأمر إلى ما ذكره فى اعتراضه الأول عن فضائل لا يظهر فيها الوسطية أن لها وسطية بالفعل . فالعدل مثلاً توسط بين ألظلم وبين المحسوبية أو المجاملة أو التسيب وكذلك الصدق يمكن أن ينظر إليه على أنه توسط بين الكذب وبين التهويل أو « الفشر » كما يعرف بالعامية .

أما بالنسبة لاعتراضه الثانى الذى يقول فيه إن الفضيلة ليست وسطاً حسابياً صحيحاً بمعنى أنها تميل إلى أحد الطرفين أكثر من الآخر ، فنقول إن المقصود ليس الوسط الحسابى الصحيح لأن الأمر لا يتعلق بمسألة حسابية وإنما يتعلق بأمور معنوية يصعب الوصول فيها إلى تقديرات كمية . فنحن لا نستطيع أن نقدر الكذب أو الصدق كميا . ومن هنا يعصب تقدير أي وسط حسابى . والمعنى هنا على سبيل المجاز والتقدير المعنوى .

ولابد أن تأتى الفضيلة عن اقتدار وتمكن لا عن ضعف وتظاهر فالعفو فضيلة اذا جاء عن اقتدار . وقد قيل العفو عند المقدرة من شيم الكرماء . أما اذا جاء العفو عن ضعف فلا يعتبر فضيلة أخلاقية وإنما هو تصنع وتكلف ومراءاة . وقد قال الشاعر فى هذا المعنى

إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة . . . فلا خير فى ود يجئ تكلفاً

وكذلك الجود والكرم والحلم وغير ذلك من الفضائل وقد قال المتنبى :

كل حلم أتى بغير اقتدار . . . حجة لاجئ إليها اللئام

يقول المنفلوطي : « ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال. وانما هى حالة من حالات النفس تسمو بها إلى أرقى الدرجات الانسانية وتبلغ بها غايتها من الكمال » . لكن المنفلوطى من ناحية أخرى كان يرى أن الشرور الرذيلة قد استشرت فى المجتمع إلى درجة جعلت تكاليف الفضيلة باهظة إذا أراد المرء أن يتمسك بها فى مجتمعه المعاصر . فالحياة معترك أبطاله الأشرار، وأسلحتهم الرذائل . فمن لم يحاربهم بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى . ولذلك يقول : كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحتفظون بالجميل لصاحبه . فاذا هوى به كرمه . . لا يعدم أن يجد . . من يمد إليه يعد المعونة . أما اليوم وقد أنكر الناس الجميل . . بل أصبحوا يشمتون بصاحبه يوم تزل به قدمه ، ويصبون على رأسه جميع ما في كتب المترادفات من أسماء الجنون وألقابه ، فليس الكرم فضيلة . وليس من الرأى الدعاء له والحض عليه . وقد يبدو فى هذه النظرة للمنفلوطى مبالغة فى اليأس والتشاؤم . فالكرم مطلوب فى حدود الاعتدال وبمقدار ما تسمح به إمكانيات الكريم دون أن يؤثر ذلك على مستوى حياته أو يتهددها . فليس المقصود هنا « الكرم الحاتمى » فهو لا يصلح لمجتمعنا المعاصر . وربما أن هذا النوع من الكرم هو ما عناه المنفلوطى . لقد كان المنفلوطى إنساناً مثالياً . وكان يضيق ذرعاً بشرور المجتمع . ولذلك ظل طول حياته يبحث عن الفضيلة فلم يجدها ، وصارت ضالته المنشودة .

الفضيلة هى الضالة المنشودة :

أشار المنفلوطى فى كتابه إلى أن الفضيلة ضالته المنشودة وأنه فتش عنها حتى عيى بأمرها فما وجد إليها سبيلاً . فتش عنها فى حوانيت التجار فرأى التاجر لصاً فى أثواب بائع . وفتش عنها فى قصور الأغنياء فرأى الغنى إماً شحيحاً أو متلافاً ، وفتش عنها فى مجال القضاء ومجامع السياسة وكراسى الملك وبين رجال الدين ورجال الصحافة وفى كل مكان فلم يجدها . ويقول إن كل الناس يدعى الفضيلة ويلبس لباسها بما يخدع أسوأ الناس بالناس ظناً ، فكيف

يتسنى له الوصول إليها فى هذا الظلام الحالك . ويستطرد المنفلوطى قائلاً : لقد سمج وجه الرذيلة فى عينى وثقل حديثها فى مسمعى حتى أصبحت أتمنى أن أعيش بلا قلب فلا أشعر بخيرها وشرها وسرورها وحزنها . (المنفلوطى : مختارات المنفلوطى : ص ص ١٠٥ ـ ١٠٦) .

أمهات الفضائل :

جمع الاسلام الفضائل كلها وأحصاها وحث المسلمين على اتباعها . وقد اهتم علماء المسلمين فى كلامهم عن الأخـــلاق ببيان الفاضل والمفضول والحميد والمحمود والرذيل والمرذول . ويشير الغزالى إلى أن الأخلاق الجميلة هى الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن . والأخلاق الخبيثة هى الابواب المفتوحة إلى نار الله الموقدة . وهى أى الأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس . ويشير إلى أن علاجها وصلاحها إنما يكون بالعمل بقوله عز وجل « قد أفلح من زكاها » وأن إهمالها هو المراد بقوله سبحانه وتعالى « قد خاب من دساها » . والشريعة فى نظر ابن مسكويه وغيره من علماء المسلمين تربى النفس على الفضيلة والآداب القوية حتى تتعودها النفس . وليست الفضيلة مقصورة على العبادات دون غيرها من أمور حياة المسلم . قيل لرسول الله (ص) إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها . قال : « لا خير فيها هى من أهل النار » . وقال عليه السلام لأبى ذر العقارى : يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق » . وقد أكد الإسلام على أن الإيمان لا يكتمل إلا بحسن الخلق وأن الايمان يقوى بالأخلاق الكريمة . وأحب عباد الله إليه أحسنهم أخلاقاً . ويرى الغزالى مقتديا بابن مسكويه أن أمهات الفضائل أربعة هى : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والباقى فروعها . وهو يعنى بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ فى جميع الأفعال الاختيارية . ويعنى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل فى إقدامها وإحجامها . ويعنى بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع . ويعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة وتضبطها فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها ومن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الحميدة كلها (الإحياء : جـ ٣ : ص ٥٣) .

ويذكر الغزالى أنه لم يبلغ كمال الاعتدال فى هذه الأصول الأربعة إلا رسول الله (ص) والناس بعده متفاوتون فى القرب والبعد منه . فكل من قرب منه فى هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله (ص) .

ويقول الماوردى (ص : ٤٦) فى أخلاق العلماء : إن صيانة النفس من أصل الفضائل لأن من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه . ومن أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلة وتوكلاً على ما يلزم الناس من صيانته ، سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبيح تبذله . فلم يف ما أعطاه العلم بما سلبه التبذل . لأن القبيح أنم من الجميل والرذيلة أشهر من الفضيلة . إذ الناس لما فى طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوئ . فلا ينصفون محسناً ولا يحابون مسيئاً ، لا سيما من كان بالعلم موسوماً وإليه منسوباً . فإن زلته لا تقال (لا تغتفر) وهفوته لا تعذر ، إما بقبيح أثرها ، واغترار كثير من الناس بها . وقد قيل فى منثور الحكم زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير . وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام : من أشد الناس فتنة ؟ قال زلة العالم ، اذا زل هلك بزلته عالم كثير . فهذا وجه . وإما لأن الجهال بذمّه أغرى وعلى تنقيصه أخرى ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة التخصيص (أى تميزه عنهم بخصوصية العلم) عناداً مما جهلوه ومقتاً لما باينوه . لأن الجاهل يرى العلم تكلفاً ولوماً (أى يلام عليه لأنه مضيعة للوقت) . كما أن العالم يرى الجهل تخلفاً وذماً .

ويأتى فى مقدمة أمهات الفضائل العدل ، وانتشاره بين الناس فى تعاملهم. فالعدل أساس الملك . وقد أمرنا الله عز وجل باتباعه . قال تعالى : «إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » . وهذه الآية الكريمة تلخص أبلغ تلخيص دعائم مجتمع الفضيلة .

ويورد كل من ابن كثير والبيضاوى فى تفسيرهما قول ابن مسعود رضي الله عنه إن هذه الآية هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر . وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون رضى الله عنه : لو لم يكن فى القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شئ وهدى ورحمة للعالمين . ومن المعروف أن إقامة العدل فى

المجتمع مسئولية الحاكم والمحكوم معاً . فالحاكم يسن شرائع العدل كما يرتضيها النظام العقائدى والاجتماعى للبلاد ، والرعية تلتزم بهذه الشرائع وتراعيها وتطبقها فى حياتها وتعاملها . ويورد ابن خلدون في المقدمة (٣٩) كلام " المؤبزان بن بهرام " في حكاية "البوم" التي نقلها المسعودي إذ يقول : « أيها الملك ، إن المُلك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه . ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للمُلك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل . والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيما وهو المُلك » . ويقول في نفس الصفحة نقلا عن كتاب "السياسة" لأرسطو : « العالم بستان سياجه الدولة ، والدولة سلطان تحيا به السُنة ، والسنة سياسة يسوسها المُلك ، والملك نظام يعضده الجند ، والجند أعوان يكفلهم المال ، والمال رزق تجمعه الرعية والرعية عبيد يكنفهم العدل ، والعدل مألوف وبه قوام العالم » . ويعلق ابن خلدون على ذلك بقوله : « فهذه ثماني كلمات حكمية سياسية ارتبط بعضها ببعض ، وارتدت اعجازها إلى صدورها ، واتصلت في دائرة لا يتعين طرفها ». والعدل عند المعتزلة هو ما يقتضيه العقل من الحكمة وهو إصدار العقل علي وجه الصواب والمصلحة .

ومن مبادئ العدل المساواة . وقد أقرها الاسلام قبل المجتمعات الغربية بقرون طويلة فلم تعرف أمريكا هذا المبدأ إلا فى القرن الثامن عشر على يد جيفرسون وفرنسا منذ الثورة الفرنسية ومنها إلى أوربا . فقد نادى الإسلام على لسان نبيه الكريم (ص) بأن المسلمين كأسنان المشط فى المساواة لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى وصالح العمل ، وأن المسلمين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم . وقال (ص) الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب . وقال (ص) يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ألا هل بلغت ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال فليبلغ الشاهد منكم الغائب . ونقيض العدل الظلم الذى ذكر ابن خلدون عنه بأنه بخراب العمران وفى ذلك يقول فى المقدمة (ص ص : ٢٨٦ - ٢٩٠) : « إن الظلم مخرب للعمران وعائده الخراب فى العمران على الدولة بالفساد والانتقاض . . ومن أشد

الظلامات وأنماطها فى إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق . فإن الرعية المعتملين إنما معاشهم وكسبهم من أعمالهم . . فإذا كلفوا العمل . . واتخذوا سخريا (سخرة) فى معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم . . وإن تكرر ذلك . . أفسد آمالهم . . وقعدوا عن السعى جملة فأدّى ذلك إلى انتقاض العمران وتخريبه . . وأعظم من ذلك فى الظلم وإفساد العمران والدولة ، التسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه فى الشراء والبيع . . ولا يجدون عنها وليجة إلا القعود عن الأسواق ، لذهاب رؤوس الأموال . . فتكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا لأن عامته من البيع والشراء . واذا كانت الأسواق عطلاً منها بطل معاشهم ، وتنقص جباية السلطان أو تفسد . . لأن معظمها من المكوس (الضرائب) على البياعات ، ويؤول ذلك إلى تلاشى الدولة وفساد عمران المدينة . .أما أخذ أموال الناس مجاناً والعدوان عليهم فى أموالهم ودمائهم وحرمتهم وأسرارهم وأغراضهم فهو يفضى إلى الخلل والفساد دفعة ، وتنتقض الدولة سريعاً بما ينشأ عنه من الهرج المفضى إلى الانتقاض . ومن أجل هذه المفاسد حظر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة (أى التفاوض حول ثمن السلعة وسعرها) فى البيع والشراء وحظر أكل أموال الناس بالباطل سداً لأبواب المفاسد المفضية إلى انتقاض العمران بالهرج أو بطلان المعاش » .

وقد نفى رب الجلالة الظلم عن نفسه بقوله « وما ربك بظلام للعبيد » كما توعد الظالمين بقوله فى سورة الزخرف (٦٥) : « فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » . والظلم من صفات مجتمع الرذيلة وسمة من سماته . من ناحية أخرى نجد أن مجتمع الفضيلة يقوم على الإحسان . ومعنى الإحسان أن تحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك وتفيض عليهم من خيرك بمثل ما أفاض الله به عليك.

ويفرق أحد أمين (الأخلاق : ص ١٣٣) بين العدل والإحسان بقوله : إن العدل واجب من الواجبات المحددة الواضحة التى لا يختلف فيها اثنان ولا يستثنى منها أحد . والقانون يعاقب كل من أخل بها وقصر فيها . أما الإحسان فواجب من الواجبات غير المحددة التى لا يعاقب عليها القانون على تركها . فليس لأحد أن يطالبك بمساعدته وأن تحسن إليه ويكرهك على ذلك ، حتى إذا

التجأ إلى القانون لن يجد نصيراً . فمدى القيام بالاحسان متروك لضمير الشخص ولأحواله الخاصة من مال وقدرة وما فيه من عطف ومحبة وميل لفعل الخير وخدمة بنى الإنسان . ويستطرد فيقول إن العدل فى الجملة فضيلة سلبية لأنها تقضى بعدم الإضرار بأحد . أما الاحسان فهو فضيلة إيجابية أكثر من العدل. لأن الاحسان يقتضى فعل الخير ومعاونة المحتاج مادمت قادراً على ذلك . فالإحسان هو إقامة العدل وأداء الواجب والزيادة عليها . ويمكن الاعتراض على ما يذهب إليه أحمد أمين من أن العدل فضيلة سلبية لأن ذلك يقلل من شأنه ولا يضعه فى مكانه الصحيح من الفرد أو المجتمع . فالعدل أساس الملك كما هو معروف ولا يمكن أن يوصف بالسلبية ، والاحجام أو الامتناع عن الظم فى حد ذاته هو موقف إيجابى شأنه شأن الإقدام عليه . فالإحجام والإقدام طرفاً معادلة لها نفس الدرجة من الإيجابية . وهو نفسه يعود فيقول إن العدل والإحسان ليسا فضيلتين تنفصل إحداهما عن الأخرى كل الانفصال . فالعدل كثيراً ما يتصل بالإحسان والإحسان لابد أن يشمل العدل وإلا صار ظلماً . وهذا يعنى أن بين العدل والإحسان كمال إتصال فكيف يستقيم ذلك فى ظل ما يذكره أحمد أمين من سلبية إحداها وإيجابية الأخرى ؟

ومن دعائم مجتمع الفضيلة إيتاء ذى القربي أى صلة الأرحام واعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه وتقديم العون والمساعدة لهم ما أمكن المرء إلى ذلك سبيلاً . ومجتمع الفضيلة هو الذى ينبذ أفراده فعل الفحشاء الذى نهانا عنه الله. وتعنى الفحشاء القبيح الشنيع من قول أو فعل كما تعنى الإفراط فى متابعة القوة الشهوية والأعمال الكبيرة المشينة . وهو الذى يبتعد عن المنكر وهو ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع ، والذى لا يقر البغى وهو الظلم والتجبر والعدوان على الناس . تلك هى أهم دعائم مجتمع الفضيلة كما حددتها الآية الكريمة السابقة .

مجتمع الرذيلة :

من البديهى أن يكون مجتمع الرذيلة على نقيض مجتمع الفضيلة فى كل هذه الدعائم . ويعرف أحمد أمين الرذيلة (ص : ١٠١) بأنها ميل مكتسب من تكرار أفعال يأباها القانون الأخلاقى والضمير . فهى عادة فعل الشر أو هى عادة

سيئة للإرادة مثل الجبن والتردد والإفراط والتفريط . ومجتمع الرذيلة بحكم تعريفه مجتمع تتفشى فيه الرذيلة والانحلال الخلقى والتسيب الاجتماعى . وهى كلها مؤشرات تؤدى فى النهاية بمثل هذا المجتمع إلى الانهيار والاندثار وهو ما حدث لكثير من الدول والمجتمعات السابقة فى مختلف العصور والأزمان وهذا ما حدث بالفعل فى المجتمع الجاهلى العربى وفى الحضارة الفارسية والرومانية أمام زحف الاسلام بمثله العليا وقيمه الانسانية الرفيعة والتى بشر بها وعمل على نشرها .

وقد فسر ابن خلدون ظاهرة انحلال المجتمعات عبر التاريخ . بقوله : غاية العمران الحضارة والترف وأنه اذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ فى الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات . فالحضارة هى غاية العمران ونهاية لعمره ومؤذنة بفساده (ص : ٢٧٤) . وينبغى أن نشير إلى أن هناك من البشر من أعياهم البحث عن الفضيلة فى كل مكان وعز عليهم أن يجدوها . ففى كتاب «الفضيلة» للمنفلوطى نجد صورة من سراب الفضيلة . فقد فتش مؤلف الكتاب عنها فى كل مكان ولم يجدها . وهو ما سبق أن أشرنا إليه . وديوجين الكلبى الاغريقى كان يسير بمصباح وسط النهار يبحث عن الإنسان الفاضل وكأن ضوء النهار لا يكفى .

هذه النظرة موغلة فى التشاؤم ولا تخدم غرضاً نافعاً . ففى كل زمان ومكان هناك الصالح والطالح والفضيل والرذيل . وعلينا دائماً أن نتذكر أن صلاح المجتمعات بصلاح أبنائها وأن صلاح هؤلاء الأبناء يكون أولاً بتغيير ما فى نفوسهم لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . واذا كان السائل من لون الإناء على قول المثل فإن شكل أى مجتمع وقوته يستمده من المقومات الإنسانية والحضارية لأبنائه بما فى ذلك صحة أجسامهم وعقولهم وأخلاقهم . وهذه هى المقومات الأساسية لمجتمع الفضيلة . وقد تصور بعض الفلاسفة والمفكرين مدينة فاضلة ومجتمعا فاضلا مثاليا Utopia من نسج خيالهم منهم أفلاطون والفارابي وتوماس مور . والمجتمعات على اختلاف شاكلتها ومنها المجتمع الاسلامى تمر بعصور قوة وازدهار وعصور ضعف وانهيار . ثم تعود إلى قوتها بعد ضعفها وحياتها بعد مواتها . وأمثلة هذه الدول والمجتمعات فى العصور الحديثة ماثلة أمامنا منها اليابان الدولة الصناعية العملاقة بعد هزيمتها

النكراء فى الحرب العالمية الثانية ومنها ألمانيا وهى تشارك اليابان فى نفس الظروف . ومنها المجتمع الإسلامى الذى يشهد حاليا صحوة هائلة فى كل الميادين بعد قرون من التخلف ونرجو لهذه الصحوة أن تقوى وتستمر وأن تؤتى أكلها خيراً وافراً عميماً . وينبغى أن نشير إلى ما ورد عن النبى (ص) عندما قال (ص) : « بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء . قيل يا رسول الله ومن الغرباء قال : الذين يحيون سنتى ويعلمونها عباد الله . وفى رواية أخرى الذين يصلحون فساد الناس . ومعنى الحديث كما يقول القرطبي إن الدين الاسلامى سيتجمع فى الحجاز ويعتصم به عندما يكون غريباً فيعود إلى الحجاز كما بدأ منه ويكون عزيزاً قوياً فيه ثم يمتد وينتشر منه ثانية وهذا معنى أنه سيعود كما بدأ (القرطبى : جـ ٢ - ص ١٤٦) .

اختلاف المذاهب الأخلاقية فى النظرة إلى الفضيلة :

تنظر المذاهب الأخلاقية إلى الفضيلة من منظور يختلف أحدها عن الآخر . فمذهب الواجب أو نداء الضمير الذى يمثله الرواقيون الإغريقيون فى القرن الثالث قبل الميلاد والفليسوف الألمانى كانط فى القرن الثامن عشر وبعض علماء المسلمين ينظر إلى الفضيلة على أنها غاية الغايات وأسمى المقاصد وهى ليست وسيلة لغاية أخرى وإنما هى غاية فى ذاتها وهى الخير كله . ولا تتغير أو تتبدل . فالفضيلة هى الفضيلة دائماً فى كل زمان ومكان . ومذهب المنفعة أو المذهب النفعى الذى يمثله الأبيقوريون الإغريقيون فى القرن الثالث قبل الميلاد ، والفليسوف الغربى « هوبز » فى القرن / ١٧ الميلادى والبراجماسيون فى العصر الحديث ينظر إلى الفضيلة على أنها تختلف باختلاف الرأى الشخصى واختلاف الزمان والمكان وتتحدد قيمتها بمقدار ما تجلبه من نفع وفائدة للشخص . ومذهب الكمال الذى يمثله هربرت سبنسر فى القرن التاسع عشر الميلادى وقبله بعض علماء المسلمين ينظر إلى الفضيلة على أن غايتها الأسمى كمال الإنسانية جمعاء. ويقول ابن رشد فى هذا المعنى : إن الانسان لم يخلق عبثاً وإنما خلق لغاية محددة وهى أن يبلغ أو يدرك الكمال فى العلم والفضيلة . وليس إدراك ذلك أمراً ممكنا فى هذه الحياة الدنيا لأنها حياة عابرة . وحينئذ لابد من التسليم عقلاً

بوجود حياة أخرى تعود فيها النفوس لتلقى حسابها وجزاءها . . وقد اتفق الكل على أن للإنسان سعادتين أخروية ودنيوية (محمود قاسم : ص ١٨٦) .

الفضائل عند سقراط وأفلاطون :

لقد ذهب كل من سقراط وتلميذه أفلاطون إلى أن الخير الأسمى للإنسان هو السعادة . والسعادة فى نظر سقراط ليست فى الثراء أو المجد أو القوة وغيرها من المظاهر المادية الخارجية . ولكنها حالة معنوية تتحق إذا استطاع المرء أن يلائم بين رغباته وبين الظروف التى يوجد فيها . وقد أثر عنه قوله : ليس الفقر والغنى فى بيوتنا ولكنه فى نفوسنا . ولسنا نسعد بتكديس الذهب والفضة ولكننا نسعد إذا نظمنا حاجاتنا ورغباتنا بحكمة .

وقد أكد الاسلام هذا المعنى عندما ذهب إلى أن الغنى غنى النفس . ونهى عن اكتناز الذهب والفضة لمجرد إقتنائها والرغبة فى امتلاكها وإنما يجب أن تنفق فى سبيل الله . قال تعالى : " والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم " .

الفضائل عند أرسطو :

تنقسم الفضائل عند أرسطو إلى قسمين : فضائل خلقية وأخرى عقلية . ونظراً لأنه يعتبر أن الإنسان يتكون من عقل وشهوة فقد جعل الفضائل الخلقية تلك التي تعمل على التحكم فى شهوات النفس وأهوائها لإخضاعها لسيطرة العقل . وهذه الفضائل طريقها التعود عليها بالممارسة والتدريب . ولذلك يطالب أرسطو المربين والقائمين على شئون التربية بتعويد النشء على ممارسة الفضائل الخلقية حتى تصدر عنهم بطريقة تلقائية سهلة دون معاناة أو إجهاد للنفس . وهو ما يماثل تعبير ابن مسكويه والغزالى فى كلامهما عن الخلق من حيث كونه سليقة ويصدر عن روية .

أما الفضائل العقلية فهى أعلى من الفضائل الخلقية عند أرسطو لأنها تقوم على التأمل العقلى وهو أعلى مراتب الانسان . وطريق هذه الفضائل التعليم والتعلم . ولا تتأتى بالممارسة أو التدريب كالفضائل الخلقية ، ويرى أرسطو أن

سعادة الإنسان تتحقق بالجمع بين الفضائل الخلقية والعقلية فى توازن واعتدال دون أن تطغى إحداها على الأخرى (انظر أيضا : فيصل بدير عون : ص ٣٢ - ٣٣) .

ويرى أرسطو أن الفضيلة وسط بين رذيلتين أو نقيضتين كل منهما ليس بفضيلة . فالشجاعة فضيلة تتوسط رذيلتين على طرفى نقيض هما التهور والجبن والكرم وسط بين الاسراف والتبذير وبين التقتير . وهكذا . وهو رأى نقله عنه علماء المسلمين من أمثال ابن مسكويه والغزالى وغيرهما كما سبق وأن أشرنا .

ويرى أرسطو أن الفضائل لا توجد فى المرء بفعل الطبع وحده ولكن الطبع يجعله قابلا لها والعادة تنميها وتتمها فيه . ومن الناس من ينقاد إلى الفضائل والموعظة ويرغب فى الخيرات لجودة طبعه . وهؤلاء قليلون . ومنهم من ينقاد إلى الخيرات بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب والخوف من العذاب أو الرغبة فى المثوبة . وذلك ليهرب من الجحيم والهاوية وما فيها من آلام . ويعلق إبن مسكويه على ذلك (ص ١٨١) بقوله : ولذلك حكمنا أن بعض الناس أخياراً بالطبع وبعضهم أخيار بالشرع والتعليم .

وقد عنى سقراط ببيان الفضائل التى توصل إلى السعادة الحقيقية فذكر أن أولى هذه الفضائل الإعتدال والتوسط لأنه وحده يوصلنا إلى الإحساس بالمتعة الحقيقية .

وثانية الفضائل العمل لأنه يمكننا من الحصول على ما نحتاج إليه بطريقة شريفة . فى حين أن البطالة أساس الفساد والشر لأنها تبلد الذهن وتضعف الصحة . وثالثة الفضائل العدالة وهى غاية السلوك الأخلاقى . وقد ميز سقراط بين نوعين من القوانين التي تنظم هذه العدالة . أحدهما القوانين المكتوبة أو المدونة وهى التى تنظم علاقات الناس ببعضهم فى حياتهم اليومية وتحقق الوفاق بينهم . وهذه القوانين تختلف بإختلاف الزمان والمكان . وثانيهما القوانين غير المكتوبة وهى القوانين الأخلاقية التى لا تتغير بالظروف والأحوال لأنها قوانين مطلقة صادرة عن إرداة الآلهة . وهى ألزم للإنسان من القوانين المكتوبة بل إنها أساس هذه القوانين فى واقع الأمر . وفى الخضوع لها راحة لضمير الإنسان

وسعادة لنفسه . أما أفلاطون خلافاً لسقراط فقد رأى أن المعرفة والعلم وحدهما لا يكفيان لأن يصبح المرء فاضلاً . فالإنسان قد يعرف الشر ويقدم عليه ويعرف الخير ويعزف عنه .

ولو كانت الفضيلة تنتقل بالتعلم كما تنتقل العلوم من عقل إلى عقل بالأدلة والبراهين لاستطاع حكماء أثينا أن يجعلوا من تلاميذهم فضلاء مثلهم .

وقد أدلى أفلاطون برأى آخر فقال هناك نوعان من الفضيلة : فضيلة فطرية موروثة لا تعلم ولا تحتاج لتعليم ، وفضيلة أخرى حقيقية تتعلم وتكسب صاحبها فضلاً وتقديراً وهى تعتمد على معرفة لخير .

نقد القول بأن الفضائل رذائل مقنعة :

معيار الفضيلة عند سقراط العلم والمعرفة فالمعرفة فضيلة والجهل رذيلة وهو رأى يمكن قبوله . أما وجهة نظر السفسطائيين * فهى مغايرة ولا يمكن أن نتفق معها . فهم يقولون بأن ما نعتبره فضلائل ما هى إلا رذائل مقنعة . وهى

---

* السوفسطائيون نسبة إلى « السفسطة » ويذكر الفارابى فى كتابه إحصاء العلوم أن السفسطة اسم المهنة التى بها يقدر الانسان على المغالطة والتمويه والتلبيس بالقول والابهام . والسوفسطاني كلمة مركبة فى اليونانية من سوفيا وهى الحكمة ومن « أسطس » وهى المموه فمعناه مموه الحكمة وكل من له قدرة على التمويه والمغالطة بالقول فى أى شئ كان (الفارابى : إحصاء العلوم ص ٨١) .

ويعلق الدكتور عثمان أمين على هذا الرأى بقوله إنه ليس فى بنية اللفظ "سوفسطائى" فى أصله اليونانى ما يدل على ذلك . بل معناه الأصل الرجل الحاذق البارع فى أمر من الأمور دون شوائب التمويه والمخادعة . ولم يلحقه معنى الزراية إلا بعد أن جنح السوفسطانيون إلى إنكار الحقائق وأسرفوا فى بذل المعارف ابتغاء المنافع الشخصية فجاء أفلاطون وأرسطو ومن بعده فأنحوا على السوفسطائيين بشديد اللوم ولاذع التقريع (الفارابى : إحصاء العلوم ص ١٥٣) .

من وضع الضعفاء الذين أرادوا من وراء التمسك بها ومطالبة الآخرين بالتزامها ، إخفاء ضعفهم وعجزهم . فليس العدل إلا عجزاً عن التفوق على الآخرين وليست العفة إلا عجزاً عن إشباع الشهوة ، وهكذا الحال فى جميع الفضائل الخلقية (فيصل بدير عون : ص ١٢) .

الرد على أصحاب مذهب اللذة :

يقول ابن مسكويه إن الناس مائلون بالطبع الجسمانى إلى الشهوات فيكثر اتباعهم ويقل الفضلاء فيهم (ص ٥٥) . ويرد على فلاسفة الإغريق القدماء ومن حذا حذوهم من المحدثين الذين يعتقدون أن الفضيلة هى ما تدعوهم إليه طبيعة البدن من الملاذ ويقول إن من رضى لنفسه بتحصيل اللذات البدنية وجعلها غايته وأقصى سعادته فقد رضي بأخس العبودية (أى عبودية الشهوات) لأخس الموالى (أى إبليس عليه اللعنة) لأنه يصير نفسه الكريمة التى يناسب بها الملائكة عبداً للنفس الدنيئة التى يناسب بها الخنازير والخنافس والديدان وخسائس الحيوانات التى تشاركه فى هذا الحال . وهو يرى أن اشتياق الناس إلى الملذات يسبقه أولا الاشتياق إلى ألم الحرمان منها . فإذا اشتاق المرء إلى لذة المأكل فقد اشتاق أولاً إلى ألم الجوع لأنه إن لم يحس بألم الجوع فلن يلتذ بطعم المأكل (ابن مسكويه : ص ٥٤) .

ومن هنا يرى ابن مسكويه أن العفة فضيلة الحس والنزعة البهيمية عند الإنسان كما أن الحكمة فضيلة العقل أو النفس الناطقة وهى التى شرف بها الإنسان وبها شارك الملائكة وباين البهائم . وهو يقول مخاطباً بعبارات مؤثرة : فانظر رحمك الله أين تضع نفسك ؟ وأين تحب أن تنزل من المنازل التى رتبها الله تعالى للموجودات ؟ فإن هذا أمر موكول إليك ومردود إلى اختيارك . فإن شئت فانزل فى منازل البهائم فإنك تكون منهم وإن شئت فانزل فى منازل السباع (إشارة إلى النفس الغضبية) ، وإن شئت فانزل منازل الملائكة وكن منهم . وفى كل واحدة من هذه المراتب مقامات كثيرة . وهو يرى أن أخس الناس هو من كان قليل العقل قريباً من البهيمة . ويسوق الدليل على فساد مذهب اللذات بالحياء فى طلبها والتستر بالبيوت والتوارى فى الظلمات عند إتيانها . وهذا الحياء

والتستر هو دليل قبحها ولو كانت شيئاً جميلاً لتظاهر به أصحابه وأحبوا إخراجه واذاعته . ويستطرد فيقول ولو سألت القوم الذين يعظمون أمر اللذة ويجعلونها الخير المطلوب والغايـــــة الإنسانية : لم تكتمون الوصول إلى أعظم الخيرات عندكم ؟ وما بالكم تعدون موافقتها خيراً ثم تسترونها ؟ أترون سترها وكتمانها فضيلة ومروءة وإنسانية ، والمجاهرة بها وإظهارها بين أهل الفضل وفى مجامع الناس خساسة وقحة ؟ لظهر من انقطاعهم وتبلدهم فى الجواب ما تعلم به سوء مذهبهم وخبث سيرتهم (ابن مسكويه : ص ٥٨) . وهو ينصح المرء بعدم الانسياق وراء الملذات وطلب الشهوات بأن يجتهد على التدريج إلى فطام نفسه منها . وهو يعترف بصعوبة ذلك إلا أنه يقول : وهو على كل حال خير من التمادى فى الباطل . ويضرب المثل بنفسه فيقول وليعلم الناظر فى هذا الكتاب أنى خاصة تدرجت إلى فطام نفسى بعد الكبر واستحكام العادة وجاهدتها جهاداً عظيماً . ورضيت لك أيها الباحث عن الفضائل ، والطالب للأدب الحقيقى ، بما رضيت لنفسى . بل تجاوزت لك فى النصيحة إلى أن أشرت عليك بما فاتنى فى ابتداء أمرى لتدركه أنت ودللتك على طريق النجاة قبل أن تتوه فى مفازة (صحراء) الضلالة وقدمت لك السفينة قبل أن تغرق فى بحر المهالك . (المرجع السابق : ٦١)

الخيرات والسعادة :

تختلف أنواع الخيرات وما يرتبط بها من سعادة الفرد . فمن الخيرات ما يطلب لذاته لأنه هدف فى ذاته . ومنها ما يطلب لأنه وسيلة لبلوغ هدف أكبر . وقد تكون السعادة هدفا فى ذاته ويسعى إليها المرء فى ذاتها . أما الثروة أو المال أو البنون أو الشهرة أو الصحة فهى أهداف مرحلية لتحقيق السعادة وأهداف أخرى . فهى وإن كانت أهدافاً فإنها بعد تحقيقها تصبح وسائل لتحقيق الأهداف الأخرى التى يرى الانسان أنها تحقق له سعادته . وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله فى سورة الكهف « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » وقوله فى سورة آل عمران « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة » ، والواقع أن الفلاسفة والمفكرين والحكماء قد

اختلفوا فى بيان أسباب السعادة وما الذى يجعل الانسان سعيداً ؟ فبعضهم قال إن الثروة هى السعادة . ولا شك فى أن الثروة والمال من مقومات السعادة فى الحياة لكنها ليست كل شئ . وبعضهم قال إن السعادة هى الصحة . فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفه إلا المرضى . وهذا صحيح لكن الصحة وحدها لا تكفى وإن كانت خيراً من المال والثروة لأنها هى التى تجلبها . وبعضهم يرى السعادة فى القناعة . فالقناعة كما يقال كنز لا يفنى . وهذا صحيح . وربما أن القناعة تحقق لصاحبها درجة من السعادة أكبر مما يحققه المال والصحة . وبعضهم يرى السعادة فى الفكر والتأمل والبحث العقلى . وهؤلاء هم أصحاب العقول وطبقة الفلاسفة والمفكرين والحكماء . وقد يكون فى ذلك مصداقية . لكن هناك وجهة نظر أخرى ترى أن المفكرين وذوى العقول لا يسعدون فى حياتهم بل وفى نعيمهم لما تجره عليهم عقولهم وتفكيرهم من شغل وهمّ . وقد عبر الشاعر العربى عن ذلك بقوله :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله . . وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

وبعضهم يرى السعادة فى الملذات الحسية من أكل وطعام ولبس وشهوة الجنس واللهو والطرب . وهذه الأمور وإن كانت كلها ضرورية للإنسان إلا أنها يجب أن تكون فى حدود الاعتدال وما شرعه الله . يقول إبن مسكويه (٩٨) إن أدنى رتب الفضائل تسمى سعادة وهى أن يصرف الإنسان إرادته ومحاولاته إلى مصالحه فى العالم المحسوس من أمور النفس والبدن . وهو يقول فى (ص ٩١) : إن السعادة على خمسة أقسام أحدها فى صحة البدن ولطف الحواس . ويكون ذلك من اعتدال المزاج أي يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس . والثانى : فى الثروة والأعوان وأشباهما حتى يضع المال فى موضعه ويعمل به سائر الخيرات ويواسى منه الفقراء والمحتاجين والمستحقين ، ويعمل به كل ما يزيد فى فضائله ويستحق الثناء عليه . والثالث : أن تحسن أحدوثته فى الناس وينتشر ذكره بين أهل الفضل فيكون ممدوحاً بينهم ويكثرون الثنـــاء عليه لما يتصرف فيه من الإحسان والمعروف . والرابع : أن يكون ناجحاً فى الأمور ويتم له كل ما رام وأمل وعزم عليه . والخامس أن يكون جيد الرأى صحيح الفكر سليم

الاعتقادات فى دينه وغير دينه ، بريئاً من الخطأ والزلل جيد المشورة فى الرأى . فمن اجتمعت له هذه الأقسام كلها فهو السعيد الكامل ومن حصل له بعضها كان حظه من السعادة بحسب ذلك ومقدار ما حصله منها .

وهكذا تختلف وجهة نظر الناس فى السعادة الإنسانية . فكل منهم يرى سعادته فى تحصيل ما ينقصه وما لا يتوفر له . فالفقير يرى سعادته العظمى فى الثروة واليسار والمريض يرى أنها فى الصحة والعافية ، والذليل يرى أنها فى الحياة والسلطان والخليع يرى أنها فى التمكن من الشهوات والعاشق يرى أنها فى الظفر بالمعشوق . والفاضل يرى أنها فى إفاضة المعروف على المستحقين .(المرجع السابق : ٩٤)

ويرى المنفلوطى وهو الأديب والناقد الاجتماعى أن سعادة العيش وهناءة وراحة النفس وسكونها لن تأتى إلا عن طريق واحد هو الاعتدال (المختارات : ص ١٥٧) ويقول فى مكان آخر (نفس المرجع : ص ١٥٨) : وحسبك من السعادة فى الدنيا ضمير تقى ؛ ونفس هادئة ، وقلب شريف ، وأن تعمل بيدك فترى بعينك ثمرات مجهودك ومساعيك تنمو بين يديك وتترعرع فتغبط بمرآها ». ويقول أيضاً : إن أدب النفس سبيل سعادة الإنسان بحريته وفى ذلك يقول : لا سبيل إلى السعادة فى هذه الحياة إلا إذا عاش فيها الإنسان و لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره إلا أدب النفس (المرجع السابق : (ص : ١١٨) وهو يرى أن السبب فى شقاء الإنسان أنه دائماً يزهد فى سعادة يومه ويلهو عنها بما يتطلع إليه من سعادة غده ، فإذا جاء غده اعتقد أن أمسه كان خيراً من يومه . فهو لا ينفك شقياً فى حاضره وماضيه .

ويقول الغزالى فى كلامه عن أصل السعادة فى الدنيا والآخرة : إن أعظم الأشياء رتبة فى حق الآدمى السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها . ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل . ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل . فأصل السعادة فى الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال .

الفضائل الخلقية من تمام الوجود الإنسانى :

يقول إبن مسكويه (ص ١٧٦) : « إن الفضائل الخلقية إنما وضعت لأجل المعاملات والمعاشرات التى لا يتم الوجود الإنسانى إلا بها . ذلك أن العدل إنما احتيج إليه لتصحيح المعاملات ، ويزول معنى الجور (الظلم) الذى هو رذيلة عند المتعاملين ، وإنما وضعت فضيلة العفه لأجل اللذات الرديئة التى تحمى الخيانات العظيمة على النفس والبدن . وكذلك الشجاعة وضعت فضيلة من أجل الأمور الهائلة التى يجب أن يقوم الإنسان عليها فى كل الأوقات ولا يهرب منها. وعلى هذا جميع الأخلاق المرضية » . وهو يقول (ص : ١٧٧) إن الكسل ومحبة الراحة من أعظم الرذائل لأنهما يحولان بين المرء وبين جميع الخيرات والفضائل ويسلخان الإنسان من الإنسانية . ولذلك ذمنا المتوسمين بالزهد . إذا انفردوا عن الناس وسكنوا الجبال والمفازات (الصحراء المهلكة) ، واختاروا التوحش الذى هو ضد التمدن لأنهم ينسلخون عن جميع الفضائل الخلقية التى عددناها كلها . وكيف يعف ويعدل ويسخو ويشجع من فارق الناس وتفرد عنهم وبعد عن الفضائل الخلقية . وهل هو إلا بمنزلة الجماد والميت ؟ »

الألم ينبوع الرحمة :

يقول المنفلوطى بأن الغَنىّ الذى لم يذق طعم الفقر فى حياته قلما يشعر بآلام الناس ومصائبهم أو يعطف على بأسائهم وضرائهم . وهو يرى أن الألم ينبوع تفجر جميع عواطف الخير والإحسان فى الأرض . . . بل هو معنى الإنسانية وروحها وجوهرها . فمن حرمه حرم كل فضيلة من فضائل النفس » . (المنفلوطى : المختارات : ص ١٤٩) . ومع أن المنفلوطى لا يقول بأن الثروة والغنى علة فساد الأخلاق وأن الفقر علة صلاحها فإنه يقرر عن تجربة واستقراء أن كثيراً من أبناء الفقراء ناجحون وأن قليلاً من أبناء الأغنياء عاملون . ويستطرد فيقول (المختارات : ص ١٥٦) :

« إن العلوم والمعارف والمخترعات والمكتشفات المدنية الحديثة بأجمعها حسنة من حسنات الفقر وثمرة من ثمراته . وما المداد الذى كتبت به المصنفات ودونت به الآثار إلا دموع البؤس والفاقة . . . وما أشرقت شموس الذكاء والعقل

فى مشارق الأرض ومغاربها إلا من ظلمات الأكواخ الحقيرة والزوايا المهجورة . وما نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء أو حكماء أو أدباء إلا فى مهود الفقر وحجور الإملاق . ولولا الفقر ما كان الغنى ولولا الشقاء ما وجدت السعادة » . ويقول فى مكان آخر : لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا عريان ولا مظلوم ولا مغبون ، ولأقفرت الجفون من المدامع وأطمأنت الجنوب فى المضاجع . ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع . ومن عباراته المشهورة : امسحوا دموع الأشقياء وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء . وهو يرى أن الألم هو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنسانى ، والجامعة الوحيدة التى تجمع بين طبقاته وأجناسه . بل هو معنى الإنسانية وروحها وجوهرها . وإلى جانب المنفلوطى فى نظرته إلى الألم على أنه ينبوع الرحمة والتراحم نجد الفليسوف الألمانى المعروف «شوبنهور » يذهب إلى نفس الرأى . وهو يرى أن التعاطف والتراحم يخرج الإنسان من نطاق الأنانية البغيضة والعزلة الذاتية النفسية والاجتماعية ويجعله يندمج فى الحياة مع الآخرين ويشاركهم فى أفراحهم وأحزانهم . فالرحمة تقرب المرء من الكمال الإنسانى وتضفى عليه إنسانية رفيعة تقربه من الإنسان الفاضل الكامل .

ونجد فى قصة « السيد والعبد » للأديب الروسى المعروف « تولستوى » أنه يصف لنا كيف أن السيد غليظ القلب قد رق لحال العبد عندما رآه يحتضر من الجوع والبرد . وعندها تحول السيد إلى شخصية أخرى متعاطفة ومحبة للآخرين (نازلى اسماعيل صالح : ١١٢) وفى قصة أخرى له بعنوان « النور يضوى فى الظلام » يصور لنا تولستوى بطل قصته فى صورة الشخص الذى يذيق نفسه العذاب ، ويحرم على أبنائه الاستمتاع بمباهج الحياة ومنها سماع الموسيقى . ويشير تولستوى دائماً إلى أن عدد المعذبين فى الأرض أكثر من السعداء . وهذا يعنى أن وجود المعذبين بالأرض أمر لازم لبقاء الشعور الإنسانى بالرحمة (المرجع السابق : ١١٥) . وقد كتب عميد الأدب العربى الراحل طه حسين قصة بعنوان « المعذبون فى الأرض » وصدرها بقوله : إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل أسوق هذا الكتاب . وهو

كتاب يفيض بكثير من القيم النبيلة والمشاعر الإنسانية الرفيعة التى قوامها الرحمة والتراحم والعطف والتعاطف فى ظل العدل والعدالة . وقد أضفى رب العزة على نفسه صفة الرحمة فى كثير من المواضع فى القرآن الكريم منها قوله فى سورة الأنعام « وربك الغنى ذو الرحمة » وقوله فى سورة الكهف « وربك الغفور ذو الرحمة » وفى آية البسملة « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وفى سورة البقرة « وأنا التواب الرحيم » وفى سورة التوبة « وأن الله هو التواب الرحيم » . وفى سورة الأعراف « وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين » . وهكذا نجد أن قيم المشاركة الوجدانية والعاطفية على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للفرد والمجتمع على السواء بل إنها لحمة النسيج الاجتماعى الذى يحفظ للجماعة مقوماتها الحيوية والانسانية . والمشاركة الوجدانية كما هو معروف تقلل من الحزن وتخفف من الآلام كما أنها تزيد من الفرحة والبهجة فى النفوس . وكلما زادت هذه القيم فى درجة الاخلاص وعمق المشاعر فى المشاركة زاد تأثيرها على مشاعر الآخرين وعواطفهم . ويجب أن تتخطى مشاعر الحب حدود الوطن الإقليمى الضيق ليشمل حب الإنسانية برمتها فكلنا أبناء آدم وآدم من تراب وإلى التراب نعود . وعكس الحب الكراهية وهى قيمة إنسانية بغيضة يجب أن يترفع عنها الإنسان الحق فهى قيمة سلبية تسلب الفرد والجماعة والإنسانية جميعاء من أسمى المشاعر الإنسانية النبيلة وتحولها إلى جماعات بغيضة متنافرة.

أبو الشّمقمَق مازال حيا يرزق :

كتب المنفلوطى مقالاً بعنوان « أبو الشمقمق » تهكم فيه على المفارقة الاجتماعية فى مصر بين الفقير المدقع والغنى المترف . قال فيه المنفلوطى موجهاً سؤاله لأبى الشمقمق : ألا يعجبك يا أبا الشمقمق حديث النهضة التى نهضتها الأمة المصرية . . وأنت جزء من أجزاء جسمها ؟ ، فقال أبو الشمقمق : إن كنت تريد أننى فرد متكرر كثير الأشباه والأمثال فى العوز والفاقة ، وواحد لا سند لى ولا عضد ، ودائر فى مدارج الطرق ومعابر السبل ، فقد أصبت وأحسنت . وإن كنت تريد معنى غير ذلك فأنا لا أفهم إلا كذلك . ويستطرد الحوار والنقاش

بينهما إلى أن يقول أبو الشمقمق : إن لم تبين لى سهمى من هذه السعادة ونصيبى من ذلك الإرتقاء فلا أصدق سعادة ولا أتصور ارتقاء . . ومادامت يدى تقصر عما تتناوله أيديهم ، وبطنى لا تمتلئ بما يمتلئ به بطونهم ، وما دمت لا أدرى واحداً بينهم يلبس معى ردائى المزق وقميصى المزق . . فهيهات أن أسعد بسعادتهم . فقلت : إن الغيث إذا نزل يسقى الخصيب والجديب . . فقال : كل سماء فيها هذا الغيث إلا سماء مصر . فإنى أراه :

كبدر أضاء الأرض شرقاً وغرباً . . وموضع رجلى منه أسود مظلم

مالى وللروض الذى لا أستنشق روحه وريحانه ، والقصر الذى لا أدخله مالكاً ولا زائراً . وهب أن الطريق مفروشة بالحرير والديباج لا بالحصي والمدر (الطين اللزج) ، فهل أبقى لى الدهر من حاسة اللمس شيئاً فأستيطع أن أميز بين خشن الملمس وناعمه ؟ . . وهبنى اذا أمشيت خضت فى بحر مائج بأنوار الكهرباء . . فهل يكون نصيبى منه إلا انكشاف سوآتى ورثاثة حالى ؟ . . لقد حبب إلى الظلام حتى تمنيت دوامه لألبس من ثوبه . . ما يكفينى مؤونة الرتق والفتق . . مالى وللمدارس والمستشفيات وأنا لا جوعان علم ، ولا مرض عندى إلا مرض الفاقة . وينهى المنفلوطى الحوار بينه وبين أبى الشمقمق بقوله : ثم نهض ومد يه إلى مودعاً فمسحت دمعة من دموعه الكثيرات . ألا رحم الله المنفلوطى لكن أبا شمقمقه مازال حياً يرزق . فما أشبه الليلة بالبارحة . وربما أن مشاكله زادت بتعقد الحياة المعاصرة وزيادة الفجوة بين الغنى والفقير . ولو أن المنفلوظى بعث من جديد لهاله ما وصل إليه حال أبى الشمقمق من التعاسة والبؤس فى عصرنا الحاضر .